1 نرفض الأهواء

(إياكم وكل هوى يسمى بغير الإسلام).

صرخة تحذير صرخها المحدث الثقة ميمون بن مهران /، حين خاف أن يخدعنا بريق الأسماء المغايرة، ما زال صداها مسموعًا عبر الأجيال.

فهو ينبهنا إلى أن كل ما هو (غير الإسلام) لا يعدو أن يكون هوى من الأهواء، مهما تعدد شكل هذا الغير، وأيًا كان الزمن الذي يظهر فيه.

وهذا هو المأثور عن جميع أئمة المسلمين، ليس عندهم إلا حق واحد، وهو: الوحي. وما عداه فهو الهوى المذموم الذي لا يمدح شيء منه ولا يلتحق بالحق، ولا يجوز للمسلم أن يحتكم إليه أو يطمئن إليه قلبه.

وحي... أو الأهواء

وقد استوفى الإمام الشاطبي تقرير ذلك في إيجاز، فقال في الموافقات:

(قد جعل الله اتباع الهوى مضادًا للحق، وعده قسيما له، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات] وقال في قسيمة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي -وهو الشريعة- والهوى، فلا ثالث لهما.

وإذا كان الأمر كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٦].

وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [محمد].

وتأمل، فكل موضع ذكر الله -تعالى- فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه، وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال: ما ذكر الهوى في كتابه إلا ذمه.

فهذا كله واضح في أن قصد الشارع: الخروج عن اتباع الهوى)[1].

ليس من طريق وسط

وما يزال ذاك أمر الله -تعالى- إلى رسوله ﷺ، فقال جل من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

(فإما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون، وليس هنالك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك

(١) الموافقات ٢/ ١٢١.

أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هو يهفو إليه الذين لا يعلمون) [1].

(إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل، وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها، وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء) [2].

ثم ما يزال ذاك أمره -تعالى- إلى المؤمنين، مخاطبًا لهم أن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

إما هدى الله، وإما غواية الشيطان، وبمثل هذا الحسم يدرك المسلم موقفه، فلا يتلجلج، ولا يتردد، ولا يتحير بين شتى السبل، وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدًا منها، أو يخلط واحدًا منها بواحد.

كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر، ومن كل منهج آخر، ومن كل شرع آخر، إن هذا في سبيل الشيطان، سائر على خطوات الشيطان) [3].

---

(١) (٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٣٦

(٣) الظلال ٢/ ١٤٢.

فتنة.... وحذر

وقد سمى الإمام أحمد بن حنبل / رد الشيء الواحد من كلام رسول الله زيغًا، فقال:

(نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا).

ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]. وجعل يكررها، ويقول:

(وما الفتنة؟ الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ قلبه فيهلكه) [1].

إنكار بعض الشريعة كفر

ولكن الزيغ درجات:

فزيغ هو كفر محض، ينتقل صاحبه إلى ما وراء حائط الإسلام، يحصل ويتحقق بأن يعلم امرؤ علما وافيا بحكم شرعي في العقيدة أو الأحكام ويعلم ثبوته بآية في كتاب الله أو بكلام متواتر عن رسول الله ﷺ، ثم يدعي عدم إيمانه بصلاح هذا الحكم الشرعي للعمل به، ويصفه بأنه يفوت المصالح، أو بأنه لا يتناسب مع التطور، وما إلى ذلك.

فهذا هو من عنَتْه الآيات بأنه يؤمن ببعض ويكفر ببعض، وما من خلاف بين المسلمين في تكفيره.

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية/ ٥٦.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلا، يذهب في كلام صريح إلى تكفير هؤلاء أصحاب الإيمان الجزئي، ويأتي بأدلة من القرآن الكريم، ويعلن /، عدم اقتصار صفة الكفر على الملحد، ومنكر جميع الرسالة بل إن: (المؤمنين ببعض الرسالة دون بعض كافرًا أيضًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء].

وقال تعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢ بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾

[النساء].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

ثم ينبه ابن تيمية، بعد سرده هذا الآيات، إلى أن الله تعالى خلالها قد:

(ذم الذين أوتوا قسطا من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها، كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية – جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم – على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله، كما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيرًا ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضًا)[1].

فابن تيمية–كما ترى– يفسر الطاغوت الوارد في الآية بأنه صاحب كل مقال يخالف الكتاب والسنة، وإن سمى نفسه فيلسوفًا أو ملكًا، والإيمان بالله دون الإيمان برسوله وأوامره وتعاليمه إنما هو تفريق يؤدي إلى الكفر، ولا اعتراف بمن يريد أن يتخذ الحل الوسط والدين المخلط المرقع، أولئك الذين وصفتهم الآية بأنهم يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أي: سبيلا ثالثا وسطا بين سبيل الإسلام وسبيل الآراء البشرية، فيجمع من هذا ومن هذا مزيجًا مركبًا يحكم الناس به.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/ ٣٣٩.

وكثرة من حكومات البلاد الإسلامية، والأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية اليوم لا تصرح بالإلحاد، وإنما تدعو إلى منهاج وأنظمة منافية لبعض أحكام الإسلام في الحلال والحرام، فتحل الكثير مما حرم الله، وتحرم الكثير مما أحل الله، عالمة بوجه مخالفتها للشريعة، قد بين علماء الإسلام ورجال الحركة الإسلامية لها الخلط الذي وقعت فيه، والتبعيض، والإيمان الجزئي، ومع ذلك أصرت على المخالفة والعودة إلى أهوائها.

فهذا كفر لا ريب فيه والعياذ بالله.

لا نكفر مسلمًا بغير برهان

ثم هناك من الزيغ ما هو دون ذلك وأصغر.

قال ابن تيمية:

(قال غير واحد من السلف: كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دن شرك) [1].

درجات متعددة من العصيان، منه اللمم، ومنه الكبائر، وما بينهما، يرتكبها المسلم شهوة، في ضعف من الهمة، وبعد عن المروءة، من دون أن يخطر على باله نفي ما أتت الشريعة به وخالفه، أو يفعل ذلك جهلا بأحكام الشريعة، لا يكلف نفسه عناء الاستفتاء، وما هو بعناء، أو يتأول تأولا.

ومحور الاستدلال في هذا عندنا قول البخاري /:

(المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها، إلا بالشرك، لقول النبي ﷺ إنك امرؤ فيك جاهلية) [2].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ١٤٠.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٥.

فأنت ترى أن استشهاد البخاري بهذا القول النبوي الشريف واضح الصواب، والمخاطب به: أبو ذر ا ، مع أنه كان من أجل الصحابة، لما حصل منه من تعيير بلال بأمه السوداء.

فالمعصية الواحدة هي شعبة من الجاهلية كما يقول النبي ﷺ، وكلما زادت معاصي المسلم زادت نسبة ما فيه من الجاهلية، ولكن لا ينتقل إلى الجاهلية كلية إلا بالشرك في العبادة أو اعتقاد حل بعض ما حرم الله أو اعتقاد حرمة بعض ما أحل الله، وإيمانه ببعض وكفره ببعض.

وهذا هو السر في تشديد النبي ﷺ على الحذر في تكفير من يظهر الإسلام، وقوله: **(أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه)** [1].

وهذا هو السر أيضًا في تشديد الإمام حسن البنا على ذلك، وقوله في الأصول العشرين: **"لا نكفر مسلما أقرَّ بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض، برأي أو بمعصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر"**.

وهو المفهوم الوارد في الشرح العراقي للأصول العشرين، وقوله أن:

(تكفير المسلم على وجه يخرجه من الإسلام خطير جدًا، فلابد من صدور ما يخرجه عن الإسلام قطعًا، كأن يأتي قولا أو عملا لا يحتمل أي تأويل في كفر صاحبه، مثل أن ينكر القطعي من الدين، كوجوب الصلاة، وحرمة الربا، أو عدم لزوم التقيد بالإسلام، أو استهزأ بالإسلام أو بالقرآن، أو سب الله ورسوله، أو لوث القرآن بالقذر، أو كذب صريح

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٧.

القرآن، أو أنكر اليوم الآخر، أو قال: إن الشريعة صارت عتيقة وذهب زمانها، ولا تصلح للتطبيق ولا لزوم لها في الوقت الحاضر، وغيرها ذلك، مما يجعل قائله أو فاعله كافرًا قطعًا.

أما إذا صدرت منه معاص، كشرب الخمر مع إقراره بأصول العقيدة الإسلامية، فهو عاص لا كافر، كذلك إذا قال قولا أو عمل عملا يحتمل التأويل، فلا نكفره بقوله أو عمله هذا.

ومن الجدير بالذكر أننا نطلق على بعض الأفعال، أو ترك بعض الأفعال، اسم الكفر، كما جاءت بها النصوص الشرعية، مثل **"ترك الصلاة كفر"**، أما تكفير شخص معين بالذات، فلابد من صدور ما يكفر به يقينا، مثل جحوده فرض الصلاة، استتابته والقول له: إذا لم تصل نقتلك، ويصر على الترك، ويؤثر القتل، فهذا دليل خلو قلبه من الإيمان ويموت كافرًا.

كذلك يجب أن نعلم أن الكفر نوعان.

كفر أصغر لا يخرج صاحبه من الإسلام.

وكفر أكبر يخرج صاحبه من الإسلام.

وعلى ضوء هذه التفرقة نستطيع أن نفهم بعض النصوص، مثل: "من حلف بغير الله فقد أشرك"، **فهذا شرك غير مخرج من الإسلام، وإنما هو معصية غليظة جدًا، وهكذا"** [1].

حساسية النفس المؤمنة!

ولكن هذا الحذر في التكفير، لا يمنعنا من رؤية مدى الانحراف البالغ السعة، الذي جنح إليه معظم المسلمين.

---

(١) شرح الأصول العشرين/ ٥٥.

نعم، هم من المسلمين.

لكنهم في المعاصي والغون، قد انحدروا إلى أدنى درجات الإيمان، وتخلفوا عن منازل الفضل.

ووراء ذلك قصة طويلة، تبدأ من يوم ما بدأت الفتوح والإدارة تستهلك تدريجيًّا تلك الصفوة المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ، المندفعة بعد موته لإتمام مهمته في نشر الدين بأروع الاندفاع، المنتشرة مثل شعاع الشمس، تفتح البلاد وتحطم الطواغيت، وتقود الناس إلى الجنة.

فما أن أتت السنوات الأخيرة من القرن الأول حتى كان نوع بطر قد سرى إلى جيل جديد ممن خلف أولئك الأفذاذ، فلانت له نفوس، وضعفت عزائم كان أولى لها أن تواصل تحطيم بقية الطواغيت.

ويهيء الله تعالى للأمة عمر بن عبد العزيز /، بما حباه من روح عالية، فيرى في مجرد ذاك البطر القليل والقعود دلالة انحراف عن الحق، ويستعظم أن تكون أمة الجهاد قد خف اندفاعها، فيقول حزينًا:

(إني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره) [1].

كلمة قالها عمر في حزن عميق، مع أنه يتسلم قيادة أمة تسود، وتفيض بمعاني الخير، وتحكم نفسها عمومًا بشرع الله.

إنه استكبار واستعظام المؤمن لصغار المعاصي، وقليل البدع، وهين الظلم، وأوليات الترف.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٣٧.

وإنها نفس المؤمن في حساسيتها البالغة إزاء معاني العدل والظلم، والاتباع والابتداع، والبذل والدعة.

ولذلك تجد المؤمن أبدًا ساعيا في طلب الأفضل الأكمل، غير مستعد لغض بصره أو كف لسانه عن ميل.

جيلنا المخدوع

ومضت من بعد عمر قرون وأجيال، نصر الإسلام في حقب منها أبطال من القادة والمصلحين، وسادت الغفلة في حقب أخرى، حتى رأينا الأمة في يومها هذا وقد انهكتها خطط اليهود ودول الكفر، وسلبتها خيرها، بما أضعفته من إيمانها، وبدلته من موازينها، وبما أقصته من حكم قرآنها، وما فرضته وربت عليه ذراري المسلمين من تصورات مغايرة للإسلام تكسبها مختلف الأسماء وتلبسها متعدد الثياب.

فإن كان في قلب المرء بقية من إيمان، وإثارة من غيرة، يأبى معها التنصل من دينه صرعوه بالتزوير، وخدعوه بالتمويه، فيجعلوه أسير ساسة وأدباء ومستشرقين لا فقه لهم، يتشبثون بنصوص عامة من القرآن والحديث، وربما من الحديث الموضوع، لتخرج نظم السياسة والاقتصاد تخريجا إسلاميا دون ضابط من أصول الفقه وشروط الاجتهاد.

فمحنة المسلمين اليوم لا تقتصر على تسلط أئمة الضلالة فحسب، بل تعدت ذلك إلى تربية سخرت المناهج الدراسية وكراسي الجامعات والصحف والإذاعات لمسخ الأفكار والقيم، حتى غدا صيد المخططات في سرور، يحسب نفسه في انعتاق من أسر القديم، أي قديم كان.

إن عصاة المسلمين اليوم ضحية تربية أخلدتهم إلى الأرض، أرادت لهم الفسوق ابتداء، لتستخف بهم الطواغيت انتهاء.

وإنها خطة قديمة، يأخذها الطاغوت اللاحق عن الطاغوت السابق، حتى تصل أصولها إلى فرعون، (وذلك كما يقول الله سبحانه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزُّخرُف] . فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت، ولا يمكن أن يطيع له أمرًا) [1] .

وهكذا أدركوا المقتل الذي عرفه فرعون، فتواصوا بالإفساد، وأخذوا (يحولون المجتمعات إلى فتات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور، مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد، كي لا يفيق، بعد اللقمة والجنس، ليستمع إلى هدى أو يفيء إلى دين) [2] .

وصارت تلك سياستهم.

(سياسة محاربة المساجد بالمراقص.

ومحاربة الزوجات بالمومسات.

ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر.

ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة) [3] .

وهكذا تحول بهذه التربية ذلك الصقر الإسلامي إلى مثل طائر الحجل في وداعته، كما يقول إقبال.

إنه الأدب والترويض الذي استعمله أئمة الضلالة.

---

(١) الظلال ٩/ ٤٥.

(٢) الظلال ٩/ ١٢٢.

(٣) وحي القلم للرافعي ٢/ ٢٥٨.

أدب:

يسلب السرو- جميل الميل ... ويرد الصقر مثل الحجل

يسحر الركبان باللحن المبين ... ولقاع البحر يهوي بالسفين

نومت ألحانه يقظتنا ... أطفأت أنفاسه وقدتنا [1]

وأشرب الناس الذل ...

إن (الإنسان- بفطرته- نَفور من الذل، آب على الحيف، ولكن تحيط بالناس أحوال، وتتوالى عليهم حادثات، فيراضون على الخضوع حينا بعد حين، ويسكنون إلى الخنوع حالا بعد حال، حتى يدربوا عليه، كما يستأنس السبع، ويؤلف الوحش، ولكن يبقى في النفس ذرات من الكرامة، ومن الدماء شذرات من الجمر، فإذا دعا الداعي إلى العزة، وأذن بالحرية، وأيقظ الوجدان النائم، وحرك الشعور الهاجد نبضت الكرامة في النفس، وبصت الجمرة في الرماد، وفاقت في الإنسان إنسانيته، فأبى وجاهد، ورأى كل ما يلقى أهون من العبودية، وأحسن من هذه البهيمية.

كل ذل يصيب الإنسان من غيره، ويناله من ظاهره قريب شفاؤه، ويسير إزالته، فإذا نبع الذل من النفس، وانبثق من القلب، فهو الدواء الدوي والموت الخفي.

ولذلك عمد الطغاة المستعبدون إلى أن يشربوا الناس الذل، بالتعليم الذليل والتأديب المهين، وتنشئة الناشئة عليه بوسائل شتى، ليميتوا الهمة، ويخمدوا الحمية، وإذا بيدهم العصا والزمام) [2].

---

(١) كتاب (محمد إقبال) لعبد الوهاب عزام/ ١٦٢.

(٢) الشوارد، لعبد الوهاب عزام/ ٣١٨.

الظبي الجفول!

وكان من تمام ما يلزمه هذا الترويض أن يضيقوا على دعاة الإسلام، ليستبد بالتوجيه التربوي والإذاعي والصحافي أدعياء العلم والشعر والحكمة، الذين موهوا أمرهم بأسماء منظمات تبدو في ظاهرها مختلفة، وطفقوا يزينون للجيل الجديد، سليل المجاهدين وشبل الأسود، أن يكون رقيقا للشهوات والجنس والعيش الرغيد، وبدءوا يمحون تراث الأمة الذي نهضت به، ويطمسون قصص العلماء، حذرًا من أن تكون نبراسًا للجيل يستدل بها على طريق العمل.

فذلك قول شاعر الإسلام إقبال /:

ليس يخلو زمان شعب ذليل ... من عليم وشاعر وحكيم!

فرقتهم مذاهب القول لكن ... جمع الرأي مقصد في الصميم:

علموا الليث جفلة الظبي وامحوا ... قصص الأُسد في الحديث القديم

همهم غبطة الرقيق برق ... كل تأويلهم خداع عليم[1]

وقد كان....

هذا هو عنوان خطة الكيد اليهودي والصليبي، إنه تعليم الليث الإسلامي جفلة الظبي.

ومحو قصص أسد الإسلام من العلماء والزهاد والمجاهدين من تاريخ القرون الفاضلة الأولى لهذه الأمة المجاهدة.

وأنتجت خطط التربية ذاك الظبي الجفول الذي لم يعد يقتحم، واستبدال التلفت بالعزم، وتعلم المسارعة إلى الهرب.

---

(١) ديوان ضرب الكليم لإقبال/ ١٠٢.

إنهم هذا الجيل من أبناء المسلمين.

شبل أسد تحول إلى ظبي وديع.

وحر استرقوه ففرح.

ومرت الخطة، حتى إن ما نلحظه اليوم لدى بعض المخلصين من ميل إلى العزلة والخوف من التعاون مع بقية المسلمين ليس إلا من آثار هذه التربية، ودليلا على نفاذها، وليس ذلك بمستغرب، فإنها إذا نجحت في إبعاد الكثيرين عن الإسلام، فمن باب أقرب أن تبعدهم عن بعض الإسلام، وتقنعهم بترديد الكلام، والاعتزال، والتماس الحذر من عمل يعرض للمتاعب.

وعندئذ بدأت المرحلة الثانية بعد أن أمنوا، وصارت عملية التحول السريع إلى الجاهلية..

ضرورة الانتشال السريع

يقف الداعية المسلم اليوم كذلك الموقف الذي وقفه عمر بن عبدالعزيز، فيحس بوجوب السعي لانتشال الأمة من تيهها الذي تهيم فيه، ويدرك ألا مناص له من التقدم للأخذ بقيادها وإن أبت، مع ما يكلفه الأمر من التعب والنصب.

فلا ريب أن السواد الأعظم قد انحرف عن غير ما قصد كيد، ولا إرادة سوء، وهم أهل لأن يشاركوا الدعاة في إرجاع الأمة إلى إسلامها، والسير في خط الحركة الإسلامية، والدوران في فلكها، إذا انجلى لهم جانب الانخداع الذي هم فيه.

ثم يقف الداعية وقفة أخرى، فيجد أن الأمر كما قال عمر: صعب، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وهاجر عليه الأعرابي.

فماذا يفعل؟

أيترك المحاولة؟ أم يؤجل إلى حين؟

كلا.

ليس من ترك، فإنه ليس في منهجه شيء من زيف ولا نقص، وآية كماله هؤلاء الشباب الأحرار الذين يتغنون بالقرآن في عصر المادة والشهوات، والقليل يؤدي إلى الكثير، والصبر مفتاح ما انغلق.

وليس من تأجيل، فإن مرور الزمن ليس من صالحه، وأن الطغيان كلما طال أمده تأصلت في نفوس المتميعين معاني الاستخذاء، ولابد من مبادرة تنتشل، ما دام في الذين جرفهم التيار بقية عرق ينبض، وبذرة فطرة كامنة.

إنه (ليس أشد إفسادًا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد:

استخذاء تحت سوط الجلاد.

وتمردًا حين يرفع عنها السوط.

وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة)[1].

وإذن، فليس من المصلحة الانتظار.

ولابد من ضم جدد تتسع بهم قافلة الأحرار.

الانطلاقة المزدوجة

وهكذا، لحقيقة وجود هذه الظباء الجفولة، والعصاة الذين تخلفوا عن منازل الفضل، ولحقيقة كفر بعض حكومات الأمة الإسلامية وأحزابها وأفرادها اليوم، بإيمانهم ببعض الإسلام دون بعض وجب وجود حركة

(١) الظلال ١/ ٩٠.

إسلامية، آمرة بالمعروف، مستنهضة للهمم، ناهية عن الانحراف، كابتة له، محاولة إقامة حكم للإسلام.

وإنما استطردنا هذا الاستطراد لندلل على انتفاء الحاجة للحكم على جميع المجتمع الحاضر بالجاهلية، وأن الداعية المسلم يمكنه الانطلاق بحرية وافرة انطلاقا مزدوجًا في آن واحد لا حرج فيه.

فهو ينظر إلى الحكومة الداعية إلى نهج يخالف الشرع، أو الحزب الداعي إلى مثل ذلك، أو الفرد المتفلسف المعتقد لحل بعض الحرام، أو المنكر لجزء من الإيمان، نظرة تكفير غاضبة، ويسلك مسلكًا غليظًا مع هذه الحكومات والأحزاب وهؤلاء الأفراد.

وهو في الوقت نفسه ينطلق منطلقا آخر تجاه أهل المعاصي من المسلمين، ويخاطبهم أنواعًا متعددة من الخطاب. فمنها: خطاب حب وتوعية بمعاني العمل الجماعي لمن أدى الفرائض والتزم بالأحكام وأمر بالمعروف وفق اجتهاده الفردي.

ومنها: خطاب حب وعتاب، أو تقريع، لمن التزم وسكت في موطن الأمر والنهي.

ومنها: خطاب شفقة ورحمة وحنان، لمن ألهته الشهوة والغفلة عن الفرائض وسدر في العصيان.

ومنها: خطاب مقت وتذكير غاضب عنيف، لصاحب الكبائر الظالم الماجن.

كل ذلك في آن واحد.

معًا في المجتمع الواحد.

* * *